



مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter



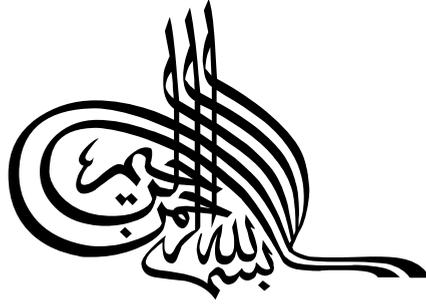
أوراق نماء



منطقة التسليم للوحي

زيد أولادزيان

منطقة التسليم للوحي



منطقة التسليم للوحي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مدخل	٧
- في دلالة الرؤية الكونية	٨
مقاربة اصطلاحية	٨
مقاربة من خلال المميزات	٩
- الإسلام كرؤية ملزمة للمنتسب إليها	٩
- الربانية ميزة الرؤية الكونية الإسلامية	١٠
- الوحي كمظهر من مظاهر العناية الإلهية	١١
خاتمة	١٣

مدخل

لقد نَحَتَ المفكر الفرنسي جيل ليوفتسكي^(١) مصطلح hypermodernité كتعبير عن «ما بعد الحداثة»، هذا المصطلح في تركيبه اللغوي المتضمّن ل hyper التي تعني المبالغة والإفراط دالّ على توصيف ليوفتسكي لما بعد الحداثة على أنّها امتداد للحداثة أو إفراط فيها.

هذا المدخل ضروريّ لفهم ما بعد الحداثة، ليس بوصفها نمطًا مختلفًا عن الحداثة ومُصادمًا لها؛ باعتبار أن الحداثة تحيل إلى تقديس العقل والثبات والسرديات الكبرى، في حين تعبر ما بعد الحداثة عن إطار مفاهيمي مختلف يتعلق بالنسبويّة والسُّيولة والفرديّة، لكن بوصف ما بعد الحداثة بأنها لا تزال محتفظة في جوهرها بالحداثة، ويمكن التعبير عنها كفرط حدائي. وهذا ملاحظ جدًّا، على الأقل على مستوى الواقع المحلي العربي؛ إذ مع نسبيّة المعرفة والحقيقة المنتشرة، لا زال تقديس العقل ماثلاً، ومع السُّيولة واللايقين لا زالت هناك ثوابت حدائيّة متجمّدة. وهذا يرجع لطبيعة الإنسان المعقّدة التي لا يمكن أن تستبدل فكرًا بآخر بشكل سهل.

إنّ إضمار النسبيّة واللايقين والسُّيولة لثوابت هو الأمر الذي يجعلنا نفهم الخطاب العَلَماني أو «المدني» والحدائي العربي المعاصر، المتلبّس بمرجعية الإسلام، وهو يُصادم الحقائق الشرعية ومسلّمات الوحي، فهو خطاب يستدل

(١) أحد أشهر علماء النفس والاجتماع الفرنسيين المعاصرين. تنصّب جلّ مؤلفاته على توصيف ما بعد

الحداثة ونقدها.

بالتعددية الثقافية ونسبية الحقيقة وفردانية الفهم، وفي الوقت ذاته ينطوي على ثوابت هي التي تجعله صلباً أمام حقائق الوحي وله موقف مصادم لها.

وسنعالج في هذا المقال أحد تلك الثوابت، وهو اعتبار التسليم لنصوص الوحي أمراً مصادماً للمنطق وحرية التفكير، في محاولة منا للتأسيس لمفهوم منطقية التسليم. وجدير بالإشارة هنا إلى أنّ التسليم لا نقصد به الخضوع للنصوص بحرفيتها أو عدم إعمال العقل مع النص؛ بل نعني به الانضواء تحت المرجعية الإسلامية والانطلاق منها، وتكون أرضية مشتركة، والتأسيس للخلاف داخلها، لا برفضها أساساً واعتبار الثقافة الحداثيّة وما بعدها منطلقاً بديلاً. ولأجل هذا فتأسيس مفهوم التسليم سيكون انطلاقةً من مصطلح الرؤية الكونية.

- في دلالة الرؤية الكونية:

ظهر مصطلح (الرؤية الكونية) مع الفلسفة الألمانية؛ وبالتحديد مع إيمانويل كانط الذي عبّر بمفهوم مُقارِب عن رؤية الإنسان للعالم من خلال الحسّ، ثمّ اتّسع نطاق هذا المصطلح ليشير لمفهوم آخر في الفلسفة المعاصرة. يمكن مقارنة هذا المصطلح من خلال مستويين: الأوّل من خلال التعريف الاصطلاحي، والثاني من خلال مميّزات ومحدّدات المفهوم.

مقاربة اصطلاحية:

تعبّر الرؤية الكونية، بالإنجليزية (world view) أو (النظرة إلى العالم)، أو (رؤية العالم) أو (التصوّر الكلّي للعالم) وغيرها؛ عن الكيفيّة التي يُدرك بها إنسان ما العالم، والتصوّر الذي يتصوّره عن المسائل الكلّية الكبرى، وهو «الإطار الكوني الذي يُفهم وفقاً له كلّ شيءٍ وقيّم»⁽¹⁾ بتعبير توماس بري. وهو «مفهوم أو نظرية شاملة للعالم ومكانة البشرية فيه، إنها بنية فكرية توفر طريقة تحليل موحدة ومجموعة من الحلول لمشاكل الوجود»⁽²⁾.

(1) روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة: كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 134، فبراير 1989، ص 11.

(2) <https://www.encyclopedia.com/philosophy-and-religion/philosophy/philosophy-terms-and-concepts/worldview-philosophy>

مقاربة من خلال المميزات :

إن تحديد المفاهيم بدقة يحتاج إلى تحديد لمحدداتها، كذلك إذا تأملنا جيداً الرؤى الكونية نجد أنها تتميز بأمرين:

- ١- أنها تتعلق بالأسئلة الوجودية الكبرى، وتوفّر إجابات عنها.
 - ٢- أنها تصوّر كلي حاكم، على أساسه تتحدّد التصورات والممارسات.
- في دلالة الدين، وعلاقته بالرؤية الكونية:

الدين في اللغة له معانٍ بحسب ما يتعدى به الفعل المشتق منه (دان)، فقد يعني: الملك، والسياسة، والقهر، وقد يعني الخضوع والطاعة، ويعني كذلك المذهب والعادة والاعتقاد. وهذه المعاني اللغوية كلّها تجتمع في المعنى الاصطلاحي لكلمة (الدين)؛ حيث يتضمّن عنصر القهر والسياسة لأتباعه، والاختيار والاعتقاد والخضوع له.

وعلاقة الدين بالرؤية الكونية تتحدّد في كون كلّ دين رؤية كونية؛ ذلك أنّ كل دين يقدّم إجابات مختلفة -ولو في تفاصيلها- عن الأسئلة الوجودية، كما يقدّم تصوّرات كلية تؤثر في التصرفات. لكن الذي يحتاج إلى شيء من البحث ولا يمكن أن نقرّه هنا اعتباطاً في طبيعة العلاقة بين الدين والرؤية الكونية؛ هو: أعلّاق تطابق هي أم تضمين؟

لكن يبقى من الواضح أنّ كلّ دين سماوياً محفوظاً كان أو محرّفاً أو وضعياً، بما هو اعتقاد وتصوّر عن العالم، وبما يقدّم من أجوبة محدّدة عن الأسئلة الوجودية، وبما هو تصوّرات فكرية تنبني عليها أفعال وتصرفات؛ هو رؤية كونية مستقلة.

- الإسلام كرؤية ملزمة للمنتسب إليها:

إنّ الإسلام دين من الأديان، وهو بذلك يشكّل رؤية كونية مستقلة بذاتها، لها خصائصها وتصوّراتها الخاصة عن الكون والحياة والإنسان، وإجاباتها المتفرّدة عن الأسئلة الوجودية والفكرية، ولها مصادر استمداد لهذه التصوّرات، هي الوحي.

وانطلاقاً من هذا، فإنّ المنتسب للإسلام اختياراً مُلزمٌ باستمداد تصوّراته من الوحي ابتداءً، ويستدعي من كلّ منتمٍ للإسلام أن يلتزم بتصوّراته الخاصّة ويستمدّ رؤيته من هذا الدّين، لا الإتيان بتصوّرات مسبقة يُحاكم الوحي على أساسها أو يُشرعن لها من خلال الوحي بمنهجيةٍ مختلفة. فالذي يدّعي الانتماء لهذه الرؤية الكونية الإسلامية أن يطرح أسئلته الكونية واستشكالاته على الإسلام، ويستورد من مصادر المعرفة الإسلامية الأجوبة على أسئلة الفكر، ويستقي منها عقيدته وتصوّراته وسلوكه ومعاملاته.

إذن فالتسليم للنصوص الشرعية هو من أساسيات الاعتقاد وبديهيّات الانتماء للدّين الإسلامي، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمته الله: (فالرُضى بالقضاء الشرعي واجبٌ، وهو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا مُنازعة ولا معارضة ولا اعتراض)^(١).

وهذا المستوى من مستويات منطقيّة التسليم لنصوص الوحي نوّكد من خلاله على أصل مهمّ في النقاش الفكري والعقدي؛ وهو أنّ المخالف المنتسب للإسلام يُناقش في ضوء الوحي، ويُلزم به، وإلا يلزم منه تقرير عدم اعترافه بمرجعيّة الوحي، ليُناقش في أصول الوحي والاستدلال على ربّانيّته. وكلّ نقاش يخرج عن هذا فهو مفتقد للمنهجيّة ولا يُوصل لنتيجة.

كما نوّكد من خلاله على ضرورة الوُضوح في الخطاب، هذا الوُضوح الذي يفتقده كثير ممّن يوظفون نصوص الوحي لإثبات مقرّرات سابقة عندهم.

- الربانية ميزة الرؤية الكونية الإسلامية:

إنّ الإسلام رؤية كونية متفردة، ثمّ هي فوق هذا الرؤية الكونية ذات المصدر الربّاني. وهذه الميزة هي التي تُضفي عليها معاني أخرى هي: الحقيقة والإطلاق والموثوقية والموضوعية والكمال. ومهمّ أن نبيّن هنا مصادر الربّانية ومآلاتها.

أمّا مصادر الربّانية فهي الدلائل التي تقوم عليها أصول الإسلام، ومصادر المعرفة الموصلة إلى الإسلام. فدلائل أصول الإسلام يجتمع فيها أدلّة الوجود

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، (١٩٢/٢).

والكمال والتوحيد الإلهي، وبراهين إمكانية ضرورة النبوة، وأدلة تحقُّق النبوة المحمّديّة. وهذه الأدلة يُدركها الإنسان من خلال تفاعل ثلاث مُدخّلات معرفيّة هي: العقل والخبر والحسّ.

ومآل هذه الأدلة والمُدخّلات اعتقاد صحّة نبوّة محمّد ﷺ، وبالتالي ربّانيّة الإسلام؛ فهو دين ربّانيّ من عند الله، ولأجل ذلك فهو يكتسب مميّزات أخرى مستمدّة من الله سبحانه، فالإله مطلق الكمال العلم والإرادة والحكمة ومصدر الموضوعيّة والقدسيّة، وبذلك يكون الوحي الربّانيّ حقًا مطلقًا ملزمًا للناس، وله قيمة في ذاته يكتسبها من ربّانيّته بها يكون حاكمًا على الناس ومستعليًا، وكاملًا وثابتًا.

إنّ الوحي يمتلك جهازًا برهانيًا قويًا على صحّته، من خلاله يكتسب صفة الربّانيّة، وما يلزم منها، كاعتبارها المصدر الموضوعيّ الوحيد الحاكم على غيره.

- الوحي كمظهر من مظاهر العناية الإلهية:

إنّ إنزال الوحي -بالإضافة لما سبق- مظهرٌ من مظاهر العناية والرّحمة والتشريف الإلهي؛ فإنّ الله سبحانه بعظمته وجلاله قد خاطب هذا العبد المخلوق واصطفاه بإنزال كلامه العظيم، فأوحى إلى نبيّه روحًا من أمره، وجاء التأكيد على أنّ الوحي مظهر للرّحمة والعناية الربّانيّة في غير ما آية؛ منها قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢، ٣].

والوحي رحمة بما يشتمل عليه هذا الوحي من الهداية والإرشاد والوضوح، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥]. وهذه النعمة من الله يجب شكرها، ولا يكون شكرها إلّا بالتسليم والإذعان والإخلاص في طلب الحقّ.

خاتمة

خُلصنا إلى أنّ الوحي لا بد أن يكون مصدر استمداد كلّ منتسب لمرجعية الإسلام، وهذا أحد بديهيات الانتماء والتدين، ثم إنّ الوحي فوق هذا هو الحقيقة والمصدر الموضوعي لربّانية مصدره، كما أنه أحد تمظهرات رحمة وعناية الله بخلقه.

وهذه المستويات الثلاث تتعاضد فيما بينها لتشكّل لنا ما سميناه منطقيّة التسليم للوحي كمرجعية، لأنّها الحقّ القائم بذاته الذي تتحمّل تبعات عدم الإيمان به إن لم تكن مسلمًا، ولأنّك تُحاكّم إليها كرؤية كونية لك إذا كنت متتميًا إليها.